التطورات السياسية والاجتماعية في مصر القديمة
من خلال كتاب "الأصل الإفريقي للحضارة :
للشيخ انتا ديوب
مع إشارة لمصر الفرعونية في القرآن الكريم

د.فائز عمر محمد جامع(*)

مستخلص:

هذه دراسة حول منهج المؤرخ السنغالي الشهير الشيخ أنتا ديوب في كتابة التاريخ، وهي دراسة منطلقة من كتابه "الأصل الأفريقي للحضارة بين الحقيقة والخيال"، وهو سفر كبير كتب أصلاً باللغة الفرنسية. تستند هذه الدراسة على الترجمة إلى اللغة الإنجليزية من الكتاب، وهو كتاب يقع في أكثر من ٣٠٠ صفحة تناول فيها أفكاره الأساسية حول أصل الحضارة الإنسانية، والتي رأى أنها مدينة إلى الحضارة المصرية القديمة، والأخيرة في نظره سابقة على الحضارات الكبرى المعروفة كما في بلاد الرافدين وفي آسيا ، وبلاد الإغريق في أوربا، وحضارتي الصين والهند في الشرق الأقصى. بل وخلافاً لمعظم علماء المصريات، فإن الشيخ أنتا ديوب يعتبر الحضارة المصرية الأولى ذات أصل أفريقي خالص. وأن وجود ذوي البشرة غير السوداء في مصر يرجع إلى عوامل الهجرات السكانية، والغزوات الخارجية، وظاهرة الرق. وهو –إنما يستند في ذلك في إلى كتابات مؤرخين أوائل ممن زاروا مصر من أمثال هيرودت ووقفوا على أحوال أهلها ووصفوا ذلك في كتاباتهم.

تنظر الورقة من بعد إلى مصر الفرعونية عبر التناول القرآني لتفاعل بني إسرائيل وموسى عليه السلام مع فرعون مصر الذي رفض السماح لبني إسرائيل الخروج مع موسى من مصر كما هي رسالة موسى. وتشير إلى أن النبي موسى هو أكثر

* مدير مركز دراسات السلام والتنمية – جامعة بحري fayz1000@gmail.com

الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم وأن قصته مع فرعون ظلت القصة المركزية عبر عدد من سور القرآن الكريم، أكثر من أي قصة أخرى.

تخلص الورقة إلى أن التاريخ المصري قد أشار إلى الآثار الواضحة للحضارة المصرية العريقة وقد سجل كل شيء سوى سيرة الأنبياء ممن كان لهم أثرهم على أخلاق وعقائد الناس. وفي المقابل ذكرت الكتب السماوية كل ما يتعلق بأخلاق وعقائد الناس وتجاهلت المخلفات المادية للحضارة المصرية. غير أن الدراسة تذهب إلى مصر الفرعونية في القرآن الكريم[1]، وتقف طويلاً عند اهتمام القرآن الكريم بمصر الفرعونية من خلال تفاعل خمس من الأنبياء من بينهم رسل عليهم السلام جميعا، منهم من زار مصر (النبي إبراهيم) ومنهم من عمل في البلاط المصري (يوسف عليه السلام) ومنهم من استقدم إلى مصر (يعقوب) ومنهم من ولد بمصر (موسى وهارون).

كلمات مفتاحية:

الحضارة المصرية – الشيخ انتا ديوب – فرعون – يوسف – النيل – الشمس

Abstract:

This paper is on the approach of the Senegalese historian and thinker Sheikh Anta-Diop, based on his book “The African Origin of Civilization: Myth or Reality”, a novel originally written in French, this paper relies on the translated version of the book in English. The central ideas Diop persistently attempts to prove were to the effect that the entire human civilization owes a lot to the early Egyptian civilization which preceded most ancient civilizations including the Greek, Chinese, the Indus and Mesopotamia. Unlike most Egyptologists he perceives the Egyptian civilization as an indigenous

black African one, attributing the existence of non-blacks in Egypt to various factors including wars, migrations and slavery…etc. Diop relies mostly on the writings of the Greek historian Herodotus. The paper further explores socio-political situations in Egypt during successive Pharonic episodes, testing different factors contributing to the formulation of the scientific achievements of the early Egyptians in various fields including irrigation, mathematics, astronomy, geometrics,….etc, as indicated in classic writings of Hegel, Al-Masoudi and others. The paper casts light as well on the exceptional reference of the Quraan in different Suwras to Egypt as a nation-state, perceived to be the only indication for a nation-state in the Quran, reflecting on the Egyptian experience with five prophets since Ibrahim up to Musa.

نظرة أولية حول التاريخ العالمي:

إن المنهج الذي يتبعه كتّاب التاريخ له تأثير كبير على المادة التاريخية المنتجة. وهذه ربما من البديهيات في مجال العلوم الاجتماعية التي تتوافق مع تعدد المدارس داخل كل علم من العلوم. أما كون التاريخ هو رواية المنتصرين عن الواقع التاريخي المعين فهو تعبير عن عدم حيادية التاريخ، وأنه ليس سوى تعبير عن رؤى سياسية تعمل على تمجيد الأبطال المنتصرين. ومما لا شك فيه مثلاً أن التاريخ العالمي –الرسمي– السائد اليوم في المؤسسات التعليمية مكتوب بأقلام وعقلية أوربية مفعمة بمركزية إثنية(European Ethno-Centrism) كما هو مشهور وهي بالطبع تتخللها نزعة استعلائية، تفهم وتقرأ مع خلفية الإرث الاستعماري الذي سبق تجارة الرق، وما صاحب هذه الخلفيات من إسقاطات مستبطنة في العقل الأوربي، يتم

من خلالها رسم التاريخ وفق منظار منصوب في أوربا ، يظهر ذلك كأوضح ما يكون في الحقب التاريخية التي تبدأ وتنتهي بأحداث أوربية كبرى. فالحديث مثلاً عن ظلامية القرون الوسطى والفوضى التي تميز هذه الفترة. هذه بالطبع تنطبق فقط على أوربا التي سادها الجهل والاضطراب وليس أي مكان آخر [٢]. أما كون بعض العلماء والمفكرين الأوربيين ينظرون باستعلاء أوربي لكل ما هو غير أوربي فيمكن دون عناء تصنيف الألماني وليم هيقل (ضمن هؤلاء) الذي تحدث عن شعوب ما قبل التاريخ في وصفه لأهل القارة الأفريقية. وإصراره المتكرر النظر إلى الشعوب وفق تراتيبية تجعل الأوربيين من ذوي الأصول الآرية أرفع درجة ممن سواهم من دون الناس.

وهناك مسار آخر لكتّاب التاريخ نجده عند المؤرخين العرب المسلمين – المسعودي مثلاً. هؤلاء كتاباتهم التاريخية تبدأ من أصل الخليقة، يستندون إلى منطلق ديني يوضح أن الخلق بدأ على الأرض بالإنسان الأول آدم "النبي" عليه السلام ثم النبي "إدريس" ثم "نوح" الذي عاصر "الطوفان" الأول والأهم في تاريخ البشرية وهذه معطيات تاريخية مصدرها القرآن الكريم يمكن أن تصنف بأنها ذات مركزية دينية (Religious centrism).

هناك أيضاً مركزية دينية نصرانية تستند إلى الإنجيل يمكن أن نلتمسها عند القديس أوغستين (٣٥٤– ٤٥٠م) الذي يشير إلى رواية الكتاب المقدس عن خلق الله الكون في ستة أيام واستوائه إلى العرش في اليوم السابع، ثم تقسيم التاريخ إلى سبع حقب. أولاً: من آدم إلى الطوفان. ثانياً: من الطوفان إلى إبراهيم. ثالثاً: من إبراهيم إلى داوود. رابعاً: من داوود إلى الأسر. خامساً: من الأسر إلى ميلاد المسيح. سادساً: العصر الحاضر. سابعاً اليوم السابع الذي يستريح فيه الله (البان ج ريد

١٩٩٦: ص١١٣). أما المنظور الإسلامي فلا يقبل فكرة حاجة الخالق للراحة التي هي من حاجات المخلوقات [٣].

حول التاريخ الأفريقي:

ظل تاريخ القارة الأفريقية ضحية لهذه المركزيات "Centrism" وليس من السهل التنبؤ في المستقبل القريب بأنه سيحظى بنوع من الإنصاف/التقدير كون القارة معروفة بالقارة السوداء.. سواد مستمد من لون بشرة إنسان القارة. والسواد لون الظلام والليل. أما دارسو التاريخ الأفريقي فيذهبون إلى أنه تعرض إلى تشويه متعمد، ممن يقولون إن القارة بلا تاريخ، أو ممن يقولون أنها خارج التاريخ. وهناك الكثير مما يقول به ابن خلدون والمسعودي وجالينوس حول السودان وميلهم إلى الطرب والطبول. في نفس هذا الاتجاه ومن فرط مجهودات تجريد القارة من تاريخها السياسي والاجتماعي نشأت تصورات انثروبولوجية لخصائص الإنسان الأسود تجرده من العقل المميز للإنسان –عما سواه من المخلوقات– وتلبسه –أي الإنسان الأفريقي– لباس العاطفة الجياشة النزاعة إلى الطبول والموسيقى والرقص. وقد تبنى طائفة من الشعراء والأدباء الأفارقة هذا الاتجاه وطفقوا يمجدون العاطفة الجياشة لدى الأفريقي نحو الموسيقى والفنون باعتبارها المواهب الفطرية التي تمثل الإسهام الأكبر للعنصر الأفريقي في المشهد العالمي. وصارت هذه المقولة من المسلمات على الرغم من كونها تستند فقط إلى رؤى صادرة عن مركزية إثنية أو ثقافية استعلائية في الغالب أوربية تنفي عن أفريقيا أو الأفارقة السود ملكة العقل. "وهناك في أدنى درجات السلم الحضاري قارة ما دون العقل أفريقيا، وتليها في المرتبة قارة ما قبل العقل آسيا، وتأتي في المرتبة الأولى قارة العقل أوربا التي يعود مركز القيادة فيها بطبيعة الحال إلى جرمانيا" قال بذلك المفكر الألماني هيقل قبل أكثر من قرن من ظهور هتلز والنازية (جورج طرابيش ١٩٩٩: ١٧٠). هذه مواقف جلية تكاد تنفي أهلية القارة أصلاً

وانتماءها إلى الإنسانية. أما الأفارقة أنفسهم فيقولون بأن التاريخ الأفريقي تعرض إلى تشويه "falsification" ومنهم أنتا ديوب نفسه. وأن التحريف بالضرورة يقتضي أولاً معرفة الحقيقة قبل الشروع في إظهارها على نحو مخالف لها. أما والحال هذا فإني أقول على الرغم من وجاهة القول بقضية التحريف لا سيما في ظل المركزيات المتعددة آنفة الذكر، فهناك حقيقة ينبغي أخذها في الاعتبار ، وهي أن القارة نفسها في حاجة ماسة إلى عمل احترافي رصين من أجل تجسير الفراغات الكبيرة في التاريخ الأفريقي المنجز الآن، والذي أقول إن فيه تركيزاً على الشمال الأفريقي بأكثر مما هو عليه في بقية أجزاء القارة ، وفي كل الأحوال واعترافاً بالحاجة الجادة إلى عمل تجاه هذا الأمر، قام مشروع من قبل منظمة اليونسكو لتصحيح وإعادة كتابة تاريخ القارة والذي تم إنجاز الجزء الأول منه في الفترة من العام ١٩٦٤– ١٩٩٩م، والذي هدف إلى تحرير التاريخ الأفريقي من التحيزات العرقية التي نجمت عن حقبة تجارة الرق، وكذلك من عقبات الاستعمار والهيمنة الأوربية على دول القارة. وقد كان من أهداف المشروع تطوير رؤية أفريقية في كتابة تاريخ القارة وبمشاركة أكثر من ٢٣٥ مؤرخاً. وقد صدر الجزء الأول في ثمانية مجلدات ترجمت إلى ١٣ لغة بما فيها العربية والإنجليزية والفرنسية علاوة على ثلاثة لغات أفريقية. وقد شارك ديوب نفسه في هذا المشروع.

وقضايا أخرى متعلقة بعملية إنتاج التاريخ الأفريقي " Historiography African" متعلقة بالمصادر التي يعتمد عليها المؤرخون، وربما باستثناء التاريخ المصري وبدرجة أقل الإثيوبي فإن الأعمال الآثارية والكشف عن وثائق تعود إلى حقب قديمة تعين على فهم التاريخ في عهود سحيقة، هذه المصادر لم يتم العثور عليها بعد، وهذا بالطبع لا ينفي وجودها. غير أن الافتراض الجدير بالدراسة هو حول ثقافة الكتابة هل صحيح أنها متأخرة حقيقة في القارة؟ تتبع مشروعية هذا السؤال من

اعتماد المؤرخين على الروايات الشفاهية في جمع التاريخ الأفريقي أو من كتابات الحضارات الأخرى عن القارة الأفريقية أو الأفارقة. هذا الافتراض من السهل قبوله ولكن ربما من الصعب إثباته أو تبريره.

مشروع الشيخ أنتاديوب:

هو المؤرخ السنغالي الأصل الذي درس الفيزياء في فرنسا ونال درجة الدكتوراه بأطروحة شهيرة حول الأصل الزنجي للحضارة المصرية، وقد كان نشطاً سياسياً منذ أن كان طالباً في بلده السنغال. وقد نال جائزة بالشراكة مع " D.W. Dubios" باعتباره الكاتب الأكثر إسهاماً وتأثيراً في الفكر الأفريقي في القرن العشرين. والحق يقال إن مؤلفات الشيخ أنتا ديوب تعبر عن اتجاهات فكرية أصيلة "original" تخصه هو وحده لا سيما في شأن التاريخ الأفريقي، وربما شكل مدرسة مختلفة عن سابقيه ولاحقيه، أظهر ما تكون في مخالفته لعلماء المصريات ممن تخصصوا في دراسة الحضارة المصرية وأغلبهم من الأوربيين ممن يستثنون مصر وقرطاجنة من العالم الأفريقي فيما يرى هيقل. إن مشروع الشيخ أنتا ديوب يجيء كرد فعل مبكر من داخل أوربا مطلع خمسينات القرن العشرين، ضد المركزيات المتعددة المنجزة ضد التاريخ الأفريقي التي مصدرها في الغالب هو أوربا التي عاش فيها ديوب أخصب فترات حياته العلمية. والمعروف أن هذه الفترة في أوربا قد شهدت عدداً من الفعاليات التي جمعت الأفارقة السود في الشتات منذ دعوات الجامعة الأفريقية "Pan-Africanism" ومؤتمراتها المتعددة، والمؤتمر الأول للكتّاب والفنانين الأفارقة.

إن جوهر مشروع ديوب هو إعادة بناء التاريخ الأفريقي، وإعادة تشكيل صورة أفريقيا "Image" الحديثة متصالحة مع ماضيها ، وتلمس مراكز قوته واستكشاف دوره ووضعه الحقيقي ضمن التاريخ العالمي، وعلى الرغم من أن الشيخ

ديوب يتبع المنهج العلمي في مشروعه في التوثيق للمصادر وتقصي المعلومات ومقارنتها، فإن هذه الورقة تستطيع أن تطلق عليه أنه صادر عن مركزية أفريقية "Afro-center" تكتسب قوة من قدرة ديوب على حشد الحجج والأسانيد والبراهين واستنفار كل أدوات العلوم الاجتماعية والإنسانية والتاريخية والأنثروبولوجية في إثبات الرؤى ومحاولة تطويرها إلى مسلمات وحقائق. هذه القدرة الفائقة على حشد البراهين من كل علم وفن من أجل تعزيز المواقف تجعل العمل كأنما هو مزيج ما بين الأيديلوجيا والأبستمولوجيا.

أما المصادر التي اعتمد عليها ديوب لا سيما العربية أو لكتّاب عرب فهناك إشارة إلى ابن بطوطة، وهو الرحالة المغربي المعروف بتسجيل ملاحظاته التي صارت مصدراً مهماً لمعرفة البلدان التي زارها. ومن البلدان التي زارها مملكة مالي ضمن مناطق أخرى من القارة، غير أنه كتب يمجد هذه المملكة ، ويصف عظمة ملوكها واستقبالهم له وإكرامهم لوفادته. ولذلك اعتمد عليه ديوب في تعزيز رؤاه حول أصالة الحضارة الأفريقية في الفترة ما قبل التدخل الأوربي.

ولكن الذي يثير الانتباه هو تجاهل الشيخ انتا ديوب لشخصية مؤثرة من المغرب العربي كابن خلدون الذي أنجز عملاً بارزاً في تاريخ العرب والبربر – "المقدمة"– وقد ترجم هذا العمل إلى عدة لغات، واستبعد ألا يكون من بينها الفرنسية، اللغة التي يكتب ويقرأ بها أنتا ديوب. ولا أدري إن كان ابن خلدون قد زار أفريقيا جنوب الصحراء أم لم يزرها، ولكنه كتب بصورة مغايرة تماماً لرؤية الشيخ أنتا ديوب في تقديره للإنسان الأسود اللون لا سيما الذي يعيش في مجاهل القارة. ابن خلدون لا يشير في العادة إلى مصادره إلا نادراً، كما فعل مع المسعودي منتقداً له في نقل الروايات دون تمحيص أو تدقيق. ولا يرد ذكر لا لابن خلدون ولا للمسعودي ضمن مصادر الشيخ أنتا ديوب على الرغم من توافر الترجمات لهذه الأعمال. ولكن الحقيقة

هي أنه سواءً اطلع عليها أم لم يطلع عليها، فهي لا تتماشى مع مشروعه. وهذا طبيعي أن يستند أي كاتب على المصادر التي تناصر المشروع الذي يتبناه.

كما وأن مشروع ديوب أيضاً يتقاطع بصورة أساسية مع شخصية مهمة في فلسفة التاريخ هو الألماني "هيقل" الذي يعتمد على نظريات تقارب مذهب ابن خلدون، لا سيما في استناده على العوامل الجغرافية في تشكيل خصائص الأمم والشعوب ومن ثم مساهماتها في مسيرة الحضارة الإنسانية، ما جعل هيقل يذهب إلى أن سكان الأقاليم ذات المناخات المعتدلة "Temperate Zones" هم الأكثر قابلية للفعل الحضاري وصناعة التاريخ. ولذلك رأى في قارة أوربا مسرحاً لبداية التاريخ العالمي "هيقل ٢٠٠١: ٧٩". وهذه تقريباً نقطة الالتقاء بين هيقل وابن خلدون. والأخير تحدث عن "المعتدل من الأقاليم المنحرف وتأثير الهواء على ألوان البشر وكثير من أحوالهم" (ابن خلدون: المقدمة الرابعة).

غير أن هيقل يذكر شيئاً مهماً في تاريخ مصر يتقف فيه مع ديوب ،ويشير فيه إلى أن مسيرة التاريخ المصري كأنما يتخذ مساراً من الجنوب (مصر العليا) إلى الشمال (مصر السفلى)، ويذهب إلى أن مصر ربما استقت جوانب من حضارتها من أثيوبيا وبصورة أساسية من جزيرة مروي "Meroe" وهي إشارة ضمنية إلى مروي السودانية في اعتقادنا (هيقل ٢٠٠١: ٢٢٠). ويعزز هيقل نظريته هذه إلى أن طيبة "Thebes" في مصر العليا هي من أقدم العواصم المصرية ثم انتقلت العاصمة من بعد ذلك إلى "ممفيس" "Memphis" بالقرب من القاهرة الحالية، ومؤخراً إلى سيس "Sais" في الدلتا. وفي ذلك يذكر ديوب أن بعض المؤرخين الأغريق كانوا يزعمون بأن مصر كانت مستعمرة أثيوبية (ديوب:٣) هذا ربما المعلم الوحيد الذي تقاربت فيه نظرتي "ديوب" و"هيقل" تجاه التاريخ المصري.

الأوضاع السياسية والاجتماعية في مصر القديمة:

يذهب ديوب إلى أن مصر كمملكة ربما يرجع تاريخها إلى ٣٢٠٠ قبل الميلاد تحت حكم المنيز "Menes" كحاكم مؤسس للدولة المصرية، والذي يُنظر إليه أحياناً كشخصية أسطورية. وعبر تاريخها عرفت مصر التقسيم إلى مصر العليا ومصر السفلى، أما منطقة النوبة فعلى الرغم من أنها تتحد وتنفصل مع مصر حقب تاريخية، فقد ظلت دائماً تحتفظ بخصائص ديمقرافية واجتماعية متميزة عن مصر السفلى والعليا. التنظيم الاجتماعي لمصر القديمة مرتبط بهرمية الحكم الفرعوني التي تستند إلى التكامل بين المؤسسة السياسية والمؤسسة الدينية. ذلك أن البلاط الفرعوني كان دائم الاعتماد على النخبة الدينية من الكهنة والسحرة في إحكام قبضته على المجتمع المصري الذي شبهه هيقل بالمجتمع الهندي. وقد أورد الأخير عن هيرودتس أن نفس نظام الطبقات "Caste system" ينقسم فيه المجتمع المصري إلى طبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين، وطبقة الرعاة، وطبقة المزارعين، وأخيراً طبقة الصناع والعمل. وجه الشبه بين الهندي والمجتمع المصري التقليدي هو توارث المهن وانتقالها من الآباء إلى الأبناء. وعلى الرغم من أن المجتمع المصري القديم عرف نظام السخرة للفرعون وأن جميع البشر والأنهار والأرض هي ملك له، لم يتحدث المؤرخون عن نظام العبودية كما هو في المجتمع الأفريقي القديم.

أما الدين فله أثر واضح في حياة قدماء المصريين لاسيما الحكام الذين كان لهم اهتمام واضح بالحياة بعد الموت، ويظهر ذلك بالطبع في المبالغة في الاعتناء بالمدافن وبناء الأهرامات التي صارت من أهم المعالم الأثرية في العالم، بل من عجائب الدنيا. ويذكر البعض في هذا المجال أن بناء ستة أهرامات بمواد حجرية تستجلب من منطقة أسوان على بعد ٩٠٠ كيلو إلى الجنوب، اشترك في هذه العملية اليدوية نحو من ٣٠٠٠٠ فرد مسخر وهو أقرب إلى العبد، نقلوا ما يقارب ٨ مليون

قطعة حجرية "Blocks of stones". وقد مات المئات منهم وهم ينفذون هذه العملية (Ali Shariati 1980: 1) قد دهستهم هذه الأحمال الثقيلة وقد دفنوا في حفر جماعية على بعد ٤٠٠ ياردة من المدافن الملكية، وذلك حتى يمكن استعباد أرواحهم لخدمة الأرواح الملكية التي هي على مقربة منهم.

وهناك اختلافات في تسمية الأسر (الحاكمة) الفرعونية في مصر بين المؤرخين. فالمسعودي مثلاً يورد أسماء من يسميهم ملوك مصر منهم الوليد بن روفع، ثم الريان بن الوليد (ويسميه فرعون يوسف)، ثم دارم بن الريان العملاقي، ثم كامس بن موران العملاقي، ثم الوليد بن مصعب (ويسميه فرعون موسى)، ثم امرأة اسمها دلوكة، وهي أسماء تكاد تكون عربية (المسعودي ١٩١٦: ١٧٩). بينما يذكر هيقل أسماء مختلفة ويشير إلى أن هذه الاختلافات ربما ترجع إلى تعدد المصادر واللغات التي أخذ منها المؤرخون. وسيظهر لنا لاحقاً كيف أن فرعون موسى يشير إليه آخرون باسم مختلف.

أما ما هو أكثر أهمية في التطور السياسي والاجتماعي بمصر فهو ماهية الخصائص والشروط التي أدت إلى نشأة حضارة مادية بهذا العمق والسعة، وهذه الأهمية في التاريخ العالمي للشعوب. قدمت الحضارة المصرية مساهمات عميقة للإنسانية في اختراع الكتابة والطب والفلك والرياضيات والهندسة والفلسفة وأضرابها من العلوم، وهي حضارة أسبق في الوجود من السومرية كما يذهب إلى ذلك "ديوب"، وبالتالي أسبق من الحضارة اليونانية التي يحتفل بها الأوربيون. وإلى ذلك يذهب "ديوب" إلى أن الحضارة الإغريقية استفادت من المصرية، بدليل أن قدامى علماء الإغريق قد زاروا مصر. وفي كلمات "ديوب" "تلقوا تدريباً في مصر" لا سيما أرخميدس وأفلاطون وفيثاغورس. والأكثر أهمية هو أنها حضارة خلّفت آثاراً مادية كثيفة ومهيبة قاومت آثار الزمن وفعله الذي يبلى معه كل مصنوع. وقاومت هذه

الآثار الزمن عبر آلاف السنين حتى نسبوا إلى بعض الفراعنة فيما يقول المسعودي أن القبط ذكرت أن في بعض الأهرامات كتابة منقوشة تفسيرها بالعربية: ".. أنا سورير الملك بنيت هذه الأهرام في سنة كذا وكذا، وأتممت بنيانها في ست سنين، فمن أتى بعدي وزعم أنه ملك مثلي، فليهدمها في ستين سنة، وقد علم أن الهدم أيسر من البنيان، وأني قد كسوتها بالديباج، فليكسها من أتى بعدي بالجصير... (أخبار الزمن: ص٨٦).

ويذكر المسعودي في هذا السياق أن كسر الهرم قد تعذر على الرشيد عندما دخل مصر، ويورد من الأقاصيص العجيبة هي، الحقيقة أقرب إلى الأساطير عن فشل من حاولوا اختراق أسرار هذه الأهرامات أو من حاولوا حفر ما دفنه الأقدمون في باطن الأرض. والحق أن أسرار هذه الأهرامات لا يزال المجهول منها أكثر من المعلوم.

مركزية الدولة المصرية:

إن الميراث المصري في تنظيم المملكة الفرعونية ارتبط منذ القدم بمركزية موغلة في إدارة الشأن العام، وهي في ذلك مؤثرة ومتأثرة باحتياجات المحكومين. وعلى الرغم من أن التاريخ المصري عرف تكوينات سياسية في مصر السفلى "الدلتا"، وأخرى في مصر العليا، غير أن الجزء الأكبر من التاريخ المصري هو تاريخ وحدوي لمصر بحدودها شمالاً إلى البحر المتوسط وجنوباً إلى الشلالات، ووجود الصحراء على جانبي النيل يمنحها حدوداً طبيعية صارمة.

إن ارتباط مصر الأزلي بالنيل وجريانه وفيضانه وانحساره ظل له تأثير مباشر على الحياة الاقتصادية ومن ثم الاجتماعية والسياسية، بل إن العبقرية المصرية التي تفتقت عن التقويم الشمسي مرتبطة ارتباطاً وثيق بالحاجة إلى التنبؤ بلحظات الفيضان، وتنسيق ضبط جريان مياه النهر في حوض الوادي، من أجل

توفير احتياجات الري لكل الرقعة المصرية القابلة للزراعة. وهو عمل ضخم جماعي وفي حاجة إلى حشد وتعبئة طاقات إدارية وعمالة يدوية وقدرة خاصة على التقسيم المحكم العمل، وهو ما يستدعي وجود سلطة مركزية قوية تتناسب مع هذه الوظائف السيادية والاقتصادية.

وعليه وبما أن الزراعة في مصر تتطلب التحكم في فيضان النهر على طول البلاد من أجل استدامة نظام الري، ما يوفر للمجتمع المصري تأمين الغذاء، فإن النظام شديد المركزية هو الذي يستطيع أن يتوفر على هذه الاحتياجات. علاوة على وحدة قطرية تضمن السيادة على كامل الأرض التي يقسمها النيل. وهذه خصائص يختلف فيها الشعب المصري عن المجتمع الإغريقي الذي ينحدر من أصول رعوية ذات طبيعة بدوية، وهذه الطبيعة كان لها تأثير مباشر على تشكيل التنظيم السياسي لدويلات المدن التي أنشأها والتي كانت تفتقر إلى الوحدة السياسية فيما بينها، وهذا التأثير فيما يذهب "ديوب" ما زال مؤثراً على طبيعة الشعوب الأوربية إلى اليوم (ديوب: ٢٠٧). وهذا لا يعني بالضرورة أن الشعب والمجتمع المصري لم يمر بمرحلة البداوة، قبل أن يستقر ويعتمد الزراعة نمطاً للحياة، غير أن تأثير الحياة البدوية كان أكثر عمقاً وتأثيراً على المجموعات الهندوأوروبية "Indo-Aryans".

إن نضوج مركزية المملكة المصرية كان في عهد الأسرة الثالثة، في وقت أرست فيه الحضارة المصرية قواعدها التكنولوجية والثقافية، في انتظار أن تتم استدامتها على يد نظام قوي يمسك بزمام الأمور على سائر أنحاء المملكة. وقد أضحت في هذه المرحلة سائر الأراضي المصرية مملوكة للدولة أي الفرعون، وهو ما يتماشى مع التكوين الاجتماعي والاقتصادي للتاريخ المصري، الذي تعتمد فيه الدولة على الضرائب المباشرة من المحكومين –كما في نمط الاقتصاد الريفي أو النمط الآسيوي للإنتاج (Asiatic Mode of production)، خلافاً لما عليه الحال في

المجتمعات الغربية حيث لا يوجد مثل هذا النمط من الاقتصاد بل يسود عوضاً عنه نظام العبودية والإقطاع.

أثر الدين على المجتمع المصري:

اتسمت الحياة المصرية القديمة بتداخل عميق بين عناصر ومكونات العلم والدين والسحر، وتأليه قوى الطبيعة، والتفاعل معها من أجل تحصيل المنفعة المادية المباشرة، والتي هي الخصب والفيضان والدفاع عن البلاد ضد الأعداء والطامعين الذين يهددون سلامة وتماسك التراب المصري. أما الذين درسوا موقف الإنسان المصري القديم من الدين، فمنهم من يرى أن الأرض والنيل والفيضان والغلة هي بالنسبة للعقل المصري وقائع حية، ظاهرة وملموسة ولا تتصل بعالم الغيب إلا اتصالاً خفيفاً (فوزي ١٩٩٣: ١٥).

وتعتبر المجموعة المصرية من أقدم المجموعات الإنسانية التي تعاملت مع الدين، باعتباره مفسراً للظواهر الطبيعية وتنبع منه منظومة القيم الحاكمة للاجتماع البشري. وبالنسبة للمصريين فإن الروح تتسم بالخلود والجسد هو مكان لها، وبالتالي ينبغي أن يحترم ويخلد ، وقد ابتكروا لأجل ذلك ممارسة "التحنيط" دون سائر الأمم وشعوب العالم. وهم يعمدون إلى أن يدفنوا مع موتاهم الاحتياجات التي يرونها ضرورية للحياة الروحية، ومن ذلك حرص الفراعنة على تجهيز مراقدهم في شكل أهرامات وتزويدها بالغالي والنفيس، وهناك شواهد على وجود كنوز ذات قيمة عالية داخل هذه المدافن الملكية –الأهرامات.

وقد اهتم الإنسان المصري القديم بالنيل والشمس باعتبارهما مصادر استدامة الحياة البشرية. فالنيل مصدر الفيضان والخصب، والشمس مصدر الضياء الذي لولاه لما استقامت الحياة. ويذهب البعض إلى تفسير مظهر "أبو الهول" الذي يبرز فيه رأس إنسان على جسد حيوان ربما الأسد، في هذا إشارة إلى انبثاق الروح عن الطبيعة

(هيقل ٢٠٠١: ٢١٨). كما وأن ارتباطمها عبر الجسد يشير إلى حاجة كل منهما إلى الآخر. ولعل اللافت في الظاهرة الدينية المصرية والذي خالفت فيه غيرها، هو أن الشعوب التي تقدس الظواهر الكونية مثل النجوم والكواكب والشمس لا تقدس معها الحيوان، بمعنى أنه عبادة الحيوان (zoolatry) هو نظام ديني مختلف، وذلك ما يلفت الانتباه إلى هذه المقابلة بين النظامين، صمت الحيوان وعدم القدرة على النطق مع القدرة والقوة الفائقة على الحركة، وبين قدرة الكواكب على الحركة طلوعاً وغياباً وعدم انبثاق الصوت ما يمكن اعتباره صمتاً أيضا.

طبقة رجال الدين تتمتع في الحياة المصرية القديمة بامتيازات واسعة، باعتبارها الطبقة التي يعتمد عليها النظام الفرعوني في إنتاج الكهانة والسحر كآليات للتحكم والتأثير على الرعية. ذلك أنه من أسس الشرعية في ذلك النظام أن يكون الفرعون هو سليل الآلهة ليكون جديراً باحترام الشعب، مستحقاً لأن يكون صاحب الملك والجاه لأن وظيفته –أي الفرعون– هي المحافظة على النظام الذي أرساه الخالق، ولأجل ذلك فهو سيد الأرض والأملاك والبشر، ومن مهامه توسيع حدود أراضيه وحماية مصر من هجمات وغزوات البلاد المجاورة (فوزي ١٠٠:١٩٩٣).

تعتبر طبقة رجال الدين –الكهنة– هي القوة المعنوية للفرعونية كنظام سياسي، باعتبارهم علماء عصرهم في فنون المعرفة المختلفة. وهو ما قد يرجح أنه دفع عدد من العلماء اليونان للقيام بزيارات للاتصال بهم في "هليوبولس" و "منف" و "طيبة"، ليتدارسوا معهم أو يأخذوا عنهم علوم الهندسة والعمارة والطب والفلك والجغرافيا والكيمياء واللاهوت.

وقد أورد المسعودي في ذلك أن قدامى حكماء اليونان كانوا يقولون "أخبرنا حكماء مصر بكذا وكذا واستفدنا منهم كذا وكذا"(٤). وقد كانت المملكة المصرية تهتم بهذه الطبقة وتغدق عليها العطايا حتى صار الترف جزءاً من نمط حياتهم ، ولم

يمكنوا التخلص منه، حتى في الظروف التي تعرضت فيها مصر لغزو خارجي سواء من الإغريق أو الرومان وكذلك الإسكندر والبطالمة، ظلت هذه الطبقة مرتبطة بمصالحها وتحالفت مع الغزاة ضد المقاومة الوطنية في "طيبة"، وربما لهذا السبب تخلت عنهم جموع المصريين، واتجهوا إلى المسيحية، وقد تكرر نفس السيناريو حينما تحالفت الكنيسة مع البيزنطيين الذين احتلوا مصر واستعمروها، تخلت عنهم جموع الأهالي اتجهوا نحو الإسلام.

والمعروف أن المكون اللغوي المكتوب في الحضارة المصرية كان من أبرز هذه المكونات. ذلك أن جميع الآثار والجدران والأهرامات عليها كتابات تؤرخ وتوضح هذه الآثار. وقد ظلت الهيروغلوفية مجهولة إلى أن جاء من يفك شفرتها. وقد تم التوصل إلى هذه اللغة تستخدم الصورة رمزاً للصوت خلافاً لليونانية التي تعتمد الأبجدية (هيقل ٢٠٠١: ٢١٧)، وهي لغة يبدو أنها من القوة بمكان بحيث لم يستطع أحد من الغزاة حمل المصريين على تركها، وقد ظلت كذلك حتى القرن السابع الميلادي والذي حدث فيه الاختراق الكبير للغة العربية مع انتشار الدين الإسلامي.

أثر النبي يوسف عليه السلام في التاريخ المصري والمنطقة:

على أهمية تأثير تاريخ بني إسرائيل على مصر والمنطقة، فإنه لا الآثار ولا المسار العام للتاريخ المصري لا يتحدث عنه كثيراً. ودخول بني إسرائيل مع النبي يعقوب بدعوة من سيدنا يوسف في البلاط المصري، وخروجهم من بعد مع النبي موسى عليه السلام هي حقبة مهمة جداً في تاريخ مصر والمنطقة والعالم، ربما إلى هذه اللحظة. وقد أسهبت المصادر القرآنية والإسلامية في رواية تفاصيل حياة يوسف عليه السلام وأفردت له سورة كاملة واعتبرها القرآن الكريم "أحسن القصص" التي ترد للوقوف على أحوال السابقين، وكذلك من أجل أخذ العبر والدروس. وكيف أنه دخل مصر إثر مكيدة دبرها له إخوته قادته مستعبداً إلى مصر على أيام الملك الريان أو

خيان (باختلاف المصادر) على عهد الهكسوس (الأسرة ١٥-١٦)، وكيف أنه صعد إلى سدة الحكم وزيراً لشؤون الزراعة والغذاء، إثر تنبؤه بحدوث مجاعة في مصر والمنطقة المجاورة. والتي بسببها تمكن من استقدام أبيه (يعقوب/إسرائيل) وبقية أفراد الأسرة التي لم تتجاوز بضعة عشرات من البدو الرعاة. وقد أقطعهم الملك –من الهكسوس– أرضاً تسمى "جاسان" بالدلتا الشرقية، بعيداً عن المصريين الذين أسبغ عليهم الاستقرار وامتهان الزراعة شيئاً من الحضارة والرقي، بالنسبة للمجموعة الإسرائيلية البدوية.

هذا القدوم إلى مصر بقيادة النبيين (يعقوب ويوسف) لا بد من اعتباره جزءاً من المؤثرات الآسيوية على المعتقدات الدينية المصرية –التي كثيراً ما يذكرها المؤرخون دون الإشارة إلى يعقوب ويوسف. فإذا كان أهل مصر يعبدون آلهة متعددة من صنع أساطيرهم وسحرهم فإنهم يعبدون الجن، فإن يوسف الوزير "النبي" وهو في هذا المنصب المرموق، على الرغم من أنه لم يكن رسولاً في بني إسرائيل أو المصريين بل كان نبياً، لا بد أن يكون قد عرف الناس من حوله –على الأقل– عن عقيدته التوحيدية والتي جهر بها في مناسبتين يذكرهما القرآن الكريم في سياق السورة.

المناسبة الأولى: عندما خلت به امرأة العزيز تراوده عن نفسه فذكر اسم الله المفرد قائلاً: "... معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي...". فذكر اسم الله بهذه الصيغة هو مما لا يعرفه المصريون في ذلك الزمان، الذين لهم آلهة متعددة تحمل أسماء معلومة لديهم.

المناسبة الثانية: عند دخول السجن مع اثنين من المصريين وحدوث محاورات بينهم حول الخالق وتعدد الآلهة، حينها طلب منهم المفاضلة ما بين عبادة الآلهة المتعددة وبين عبادة الله الواحد القهار، وأعلمهم أنهم إنما يعبدون من دون الله

أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان. وأخبرهم أن الله تعالى أمر ألا يعبد في الأرض إلا إياه (القرآن الكريم- يوسف- ٣٦-٤٢).

وفي أثناء المحاورات بينهم طلب منه زميلاه في السجن أن يخبرهم كيف يستطيع أن يتنبأ بالطعام الذي سيوزع عليهم في السجن من قبل أن يوزع عليهم، وهذا ما كان يبدر من يوسف (النبي) وهم يعلمون أنه ليس من الكهنة أو المنجمين. فقال يوسف عليه السلام "... ذلك مما علمني ربي...".

والذي لا شك فيه أن كلمة "ربي" كان لها وقع غريب على المصريين، لأنها لا تعني لهم شيئاً غير الملك، وهم يعلمون أن الملك لا يُعلّم يوسف.

سبق يوسف عليه السلام وأبيه يعقوب إلى زيارة مصر أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي جاء بالحنيفية وهي عقيدة التوحيد. وقد تفاعل إبراهيم عليه السلام أيضاً مع البلاط المصري الفرعوني على النحو الذي ورد في القرآن الكريم، وانتهى به الأمر إلى أن تم إلحاق "هاجر" إليه والدة إسماعيل واصطحبها معه لتأسيس مكة وبناء بيت الله الحرام.

هذه بعض تفاعلات مصر مع الأنبياء الموحدين والتي يمكن إدراجها تحت عنوان المؤثرات الآسيوية عليها. فيما يردد عدد من المؤرخين بما فيهم هيرودوت أن "أخناتون" من فراعنة الأسرة الثامنة عشر، قد دعى هو وزوجته "نفرتيتي" إلى إلغاء جميع المعابد وتحريم عبادة الآلهة (أوزريس- آيزيس- دورس- آتوم... الخ) وإفراد الإله "آتون" إلهاً لكل الناس المصريين وغيرهم (رشدي البدراوي ٢٠٠٩: ٥٧٢). هذه هي الإشارة إلى التوحيد التي رأى هيرودوت وغيره بأن المصريين هم أول من قال به، غير أن هذا التوحيد يختلف عن توحيد يوسف عليه السلام الذي سبق أخناتون، ولكن المصادر التاريخية تتجاهله سوى المصادر القرآنية والتوراتية.

وبعد أن تم طرد الهكسوس من مصر تبدلت أحوال أبناء يعقوب –بني إسرائيل– وقد أطلق عليهم القرآن "الأسباط" بمعنى القبائل الإسرائيلية قبل نزول اليهودية. وقد نظر إليهم المصريون باعتبارهم المستفيدين من حكم الهكسوس، وعليه فإن ولاءهم لمصر هو محل شك ، ولذلك عاملهم فراعنة الأسرة الثامنة عشر بقسوة وسخروهم للعمل في الزراعة والبناء، وعلى الرغم من ذلك كانوا يتكاثرون بشكل لفت انتباه النظام الفرعوني. فصمم ذلك النظام في مقابل ذلك سياسة سكانية للحد من هذا التكاثر، وذلك بإصدار أوامر قتل الذكور لخفض العدد الموجود وكذلك الولادات المتوقعة (Firth 1957: 48).

في هذه الأثناء ظهر النبي موسى(٥) كمولود لبني إسرائيل على عهد تحتمس الثالث (١٤٥٠ قبل الميلاد) حسب المصادر التوراتية، وهو من أقوى فراعنة الأسرة الثامنة عشر. وموسى عليه السلام هو نبي ورسول الله إلى فرعون ليقود أحفاد يعقوب/إسرائيل إلى أرض الميعاد. غير أن الفرعون رفض رسالة موسى وقاوم بشدة إخراج بني إسرائيل من مصر، ما ترتب عليه حدوث عدد من الكوارث ذكرها القرآن الكريم وفصلتها المصادر المسيحية والتوراتية إلى ٩ كوارث، أجملها القرآن في سورة الأعراف الآيات ١١٦–١٣٠. وفي منتهى الأمر خرج موسى ببني إسرائيل خلسة ومعهم تابوت يوسف عليه السلام عبر البحر الأحمر، وهلك فرعون في عرض البحر فيما كان يتعقبهم. خرجت هذه المجموعة –أي بني إسرائيل– من مصر وهي ما تزال متأثرة بالعقائد المصرية التي أخذوا عنها عبادة العجل وتقديسه. غير أن في القرآن الكريم "سورة البقرة" قد حملت معرفة تفصيلية بعقائد بني إسرائيل في تلك الفترة. ولعل الله تعالى طلب منهم "أن يذبحوا بقرة" وهذا الطلب الإلهي كان بمثابة إعلان بكسر القدسية التي يضفيها هؤلاء البشر على الحيوان. وهو نوع من التربية المتدرجة لهم

نحو التوحيد بعد أن طالت معاشرتهم للمصريين من الذين يعبدون آلهة متفرقة ومتعددة.

مصر الفرعونية في القرآن الكريم:

لعل القرآن الكريم الكتاب الخاتم هو الخطاب الأخير للعالمين، وهو بهذه الصفة قد أولى مصر اهتماماً خاصاً من دون سائر بلاد الله تعالى. هذا الاهتمام القرآني بمصر لا بد أنه صادر عن مكانة خاصة للمنطقة وساكنيها. وهي مكانة يشهد بها تاريخ مصر وجغرافيتها وهي تتوسط العالم، بل أن الظواهر المادية على قوة الحضارة المصرية يمكن التدليل عليه باعتباره قلب ونواة لمنطقة حضارية بالمعنى الأنثروبولوجي، تتنوع فيها المؤثرات الحضارية المادية وغير المادية، وتقف شامخة أمام كل موجات الغزو الأجنبي عليها. ذلك أن ألف سنة –عشرة قرون– من السيطرة الرومانية تحت الإمبراطورية مصحوبة بعد ذلك بالحضارة الهلينية. لم تستطع هذه القرون المطاولة "رومنة مصر" أي جعلها تتأثر بالحضارة الرومانية (فوزي ١٩٩٣م: ١٦٣)، بل حدث العكس، لم يتقبل المصريون الديانة الإغريقية، ولم يستسيغوا أساطير حبال الأولب، بل أقبل الإغريق على الآلهة المصرية فانتشرت عبادة "أيزيس" في سائر أنحاء الإمبراطورية الرومانية. وعلى كثرة الشعوب التي هيمنت على مصر من آسيا وأوربا، كان المصريون دوماً الأكثر تحضراً من حكامهم الذين كانوا في الغالب من ذوي الخلفية البدوية بما فيهم الإغريق.

ولعل قصة موسى وفرعون هي القصة الأكثر تكراراً من دون سائر قصص القرآن على الإطلاق، فضلاً عن "سورة يوسف" والتي تناولت الحياة الاجتماعية والأسرية في البلاط المصري، وكلتا القصتين تتمحوران حول الحياة السياسية والاجتماعية لمصر الفرعونية. والقصة المركزية في القرآن للنبي موسى وتفاعله مع فرعون تسلط الأضواء على الاستبداد بالطغيان باعتبارها من أبرز ظواهر الانحراف

السياسي الذي مارسه الفرعون ضد شعبه الذي قبل بذلك واستكان له. حتى أن القرآن قد ذكر "... فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ.." الزخرف ٥٤"

لم يبرئ القرآن الكريم الشعب من جريرة الطغيان الذي هو ضحيته. وقد دون القرآن الكريم لأقوال الفرعون ليكشف عن إفراط الحكام في إذلال المحكومين فيما لو رضخوا إليهم فهو تارة يقول ...

- "... أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي"

في إشارة إلى أنه يملك الأرض والناس والأنهار. وتارة يقول عن موسى

- "... أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ..."

في إشارة لاضطهاده بني إسرائيل ونظرته الدونية إليهم

- "..لولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين..."

ثم النتيجة المنطقة لكل هذه المقدمات أن يقول "... ما علمت لكم من إله غيري..."

ويكشف القرآن الكريم عن قصة قارون، وهو أحد أثرياء بني إسرائيل الذين أثروا في أيام يوسف عليه السلام الذي أغدق عليهم العطايا باعتبارهم غرباء في الديار المصرية على أيام المجاعة التي اضطرت المصريين لبيع ممتلكاتهم للحصول على الغذاء بما في ذلك الأرض، وأخيراً اضطروا لبيع أنفسهم ليصيروا عبيداً للفرعون، كل ذلك على أيام المجاعة في "السبع العجاف". وقد قال قرون وهو مزهو بزينته فخوراً بما آتاه الله من الكنوز، قال إنه جمع هذه الثروة بذكائه ونشاطه، منكراً إنعام الله تعالى عليه بذلك. " فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ{٨١}. " القصص"

وليست صورة مصر كلها سالبة (٦) في القرآن الكريم ذلك أنه ذكر الجوانب الأخلاقية المشرقة في حقب أخرى في البلاط المصري نفسه. بل إن سنة الله في الأرض تقتضي أن يكون هناك كفار ومؤمنون، أغنياء وفقراء، ملائكة وشياطين. فقد

مدح القرآن الكريم امرأة فرعون وهي آسيا بنت مزاحم التي آمنت بموسى وعقيدته، وعندما علم الفرعون بذلك قيل إنه أوثقها بالحبال تمهيداً لقتلها، ولحظتها طلبت من الله تعالى أن يبني لها عنده قصراً في الجنة، تعويضاً لها عما فقدت، وقد وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم بكمال العقل.

والدلالة الكبرى لاهتمام القرآن الكريم بما يحدث في مصر الفرعونية هو اتصال التاريخ المصري "Continuity" على مدى الـ ٥٠ قرناً الماضية، دون انقطاع سوى ما حدث بعد إعلان الإمبراطورية الرومانية اعتناق المسيحية، من تدمير وحرق لبعض المعابد واضطهاد الكهنة وتعذيب العلماء الوثنيين وضرب المكتبات المصرية. ولكن سرعان ما اعتنق المصريون المسيحية وأضحت الكنيسة القبطية المصرية "Orthodox" هي الكنيسة الأساسية حتى ذهب البعض إلى أن تاريخ المسيحية في القرون الخمسة الأولى هو تاريخ الكنيسة المصرية.

تذهب هذه الورقة إلى أن تسليط القرآن الكريم أضواء كثيفة على مصر هو من أجل إرجاع النظر وإمعانه في الآثار العظيمة والمخلفات الباهرة لمنجزات حضارة مادية وملموسة ومومياءات محفوظة. وأن الفرعون الذي طغى وتجبر وادعى الألوهية ورفض نبوة موسى وطلبه إرسال بني إسرائيل وطاردهم حتى غرق في البحر، حفظ الله تعالى جسده ليكون لمن خلفه آية وعبرة كما قال في سورة يونس " فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ{٩٢} فالإنسان يسهل عليه التفاعل والاعتبار بما يراه أمامه. ولعل جسد الفرعون المسجى في المتحف بالقاهرة اليوم هو عبرة لمن يعتبر من الحكام ومنسوبي المؤسسة السياسية، باجتناب القابلية للعلو والتعالي، وهي الصفات القريبة من الحكام والولاة.

إن قصة موسى وفرعون والتي وردت في ٣٤ سورة من سور القرآن والتي تحدث تفاصيلها في مصر بلد الحضارة، ستوفر هذه الحقيقة للقصة أوسع انتشار

على البشرية بحكم أن تاريخ مصر بهذه الصفة هو جاذب للعلماء وللدارسين والساسة وغيرهم من الذين ينشدون المعرفة والعلم بين الناس. ومع أن الآثاريين وكتّاب التاريخ لم يجدوا في المدونات والبرديات أي أثر لقصتي يوسف وموسى على كثافة الأعمال التاريخية بمصر، وعثورهم على الكم الهائل من تفاصيل التاريخ المصري والفرعوني، فإن ورود هاتين القصتين في القرآن والتوراة مع اختلافات طفيفة تفصيلية، لا تدع مجالاً للشك في صدقية وموثوقية هذين الحدثين " Authenticity and credibility ". لأن المعرفة المتوفرة عن طريق النص تمثل أعلى درجات التحقيق والتوثيق بل تقف هاتان القصتان دليلاً على أن الكتب المقدسة والسماوية يؤيد بعضها بعضاً، ولو كانت من عند غير الله لوجدنا فيها اختلافاً كثيراً. بل إن تفاعل التاريخ المصري مع خمس من الأنبياء يجلب لها مكانة خاصة في الأديان السماوية، إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى وهرون. ولكل منهم أثر وتأثير على تاريخ مصر السياسي والاجتماعي. وهي –أي مصر– ربما البلد الوحيد الذي ورد ذكر اسمها صراحة في القرآن ضمن البلدان القليلة بكة والمدينة وبابل.

خاتمة :

تناولت هذه الدراسة التطورات السياسية والاجتماعية بمصر الفرعونية من خلال كتاب الشيخ أنتا ديوب عن الحضارة الإنسانية وأصلها الأفريقي إن كان حقيقة أم خيالاً. والشيخ ديوب من المؤرخين المرموقين في القارة الأفريقية وله قدرة وافرة على حشد الأسانيد التي تؤيد أطروحته حول الأصل الأفريقي للحضارة الإنسانية عبر الحضارة المصرية. تذهب الورقة إلى أنه مهما يكن من أمر، فإن الحضارة الإنسانية هي تراكم مساهمات عبر مسيرة البشرية يسهم فيها كل يميزه عن غيره. ومما لا شك فيه أن مصر هي جزء من القارة الأفريقية، هذه الحقيقة ربما كانت محل شد وجذب

في منتصف خمسينات القرن الماضي في زمن كتابة المسودة الأولى للكتاب، وكذلك احتدام النظرة الدونية إلى الإنسان الأسود.

وترصد الورقة المفارقات بين مشروع "أنتا ديوب" وبين نظرات ابن خلدون الذي لا يشير إليه الكاتب وتجاهله من ناحية، وبينه وبين هيقل من ناحية أخرى. تستند الورقة إلى معالجات المسعودي ومشاهدات ابن بطوطة فهما يصدران عن رحلات طويلة ومضنية عكسا فيها انطباعاتهما حول القارة وإنسانها الذي يهمنا أمره في هذه الدراسة.

ثم نظرت الورقة إلى التحليلات المعاصرة التي عالجت التطورات التاريخية لمصر الفرعونية لاسيما من خلال أثر الدين وطبقة الكهنة والسحرة، ثم إلى مركزية الدولة المصرية كنمط إداري فرضته الأوضاع الأيكولوجية للنهر الواحد الذي يمثل شريان الحياة، وضرورة تنظيم أعمال الري للزراعة ما يتطلب تنظيماً إدارياً يمكن من خلاله بسط وممارسة السيطرة من أجل تأمين الري اللازم للزراعة والفلاحة التي هي عصب الحياة في الدولة المجتمع المصري منذ ذلك التاريخ.

كما تناولت الورقة أيضاً المؤثرات الآسيوية المهمة على الحياة المصرية بدخول النبي يوسف واستقدامه لأسرته الممتدة البدوية من الشام إلى مصر الأكثر تحضراً واستقراراً.

تنظر الورقة من بعد إلى مصر الفرعونية عبر التناول القرآني لتفاعل بني إسرائيل وموسى عليه السلام مع فرعون مصر الذي رفض السماح لبني إسرائيل الخروج مع موسى من مصر كما هي رسالة موسى. وتشير إلى أن النبي موسى هو أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم وأن قصته مع فرعون ظلت القصة المركزية عبر عدد من سور القرآن الكريم، أكثر من أي قصة أخرى.

تخلص الورقة إلى أن التاريخ المصري قد أشار إلى الآثار الواضحة للحضارة المصرية العريقة ، وقد سجل كل شيء سوى سيرة الأنبياء ممن كان لهم أثرهم على أخلاق وعقائد الناس. وفي المقابل ذكرت الكتب السماوية كل ما يتعلق بأخلاق وعقائد الناس وتجاهلت المخلفات المادية للحضارة المصرية.

الخلاصة:

إن مصر هي من أكثر بلدان العالم التي اهتم بها الآثاريون والمؤرخون والحق يقال قد أنجزوا فيها إنجازات مهمة عبر حقب متطاولة من البحث والتنقيب، ما كشف عن جوانب مهمة في التاريخ المصري وحضارته العريقة بمعتقداتها وآلهتها القديمة وعلمائها.

وقد سبق أن ذكرنا أن ما لم يجده المؤرخون والآثاريون هو سيرة الأنبياء الذين عاشوا وتفاعلوا أو ولدوا بمصر. أقول إن كانت الشواهد على الحضارة المصرية هي المخلفات المادية –الأهرامات، وأبو الهول، والمومياءات، والقطع الأثرية، والعمارة، والهيروغلوفية على الجدران... إلخ، فإن الشاهد على تاريخ الأنبياء هو من أقوى الشواهد الحية هو شعب بني إسرائيل نفسه الذي يؤمن بأن تاريخه يبدأ مع يعقوب بن إسحق بن إبراهيم وأن أخاه إسماعيل من أم مصرية، وأن حفيده هو النبي موسى مؤسس الشعب اليهودي وهو مصري الميلاد.

فإن قلنا إن التاريخ الصلب Hard History لمصر شواهده ماثلة وقفت تتحدى الزمن وعوامل البلى فيه ، غير أنها لا تنطق إلا وهي صامتة بلسان الحال، فإن التاريخ المرن Soft History وهو سير الأنبياء، فإن شواهده وشهداءه هم شعب يسعى في الأرض بعد أن تاه فيها ردحا من الزمن، غير أنه شعب ناطق فاعل متفاعل مع أمم الدنيا وشعوبها منذ تكوينه بمصر حتى يوم الناس هذا. وهذا منطق ربما يصلح مع غير المؤمنين بالرسالات السماوية وأكثرهم ممن يمجدون التاريخ الصلب لمصر وأهراماتها وعجائبها.

الهوامش:

١. ذكر اسم مصر في القرآن الكريم مباشرة عدد ٥ مرات في سورة "البقرة" و "يوسف" و "يونس" و"الزخرف" ، ذكرت مصر في سورة يوسف مرتين وبصورة غير مباشرة أشار إليها القرآن (١٩ مرة) في تناول قصص بني إسرائيل مع فرعون موسى. وفي مقابل ذلك لا نجد ذكر لبلدان بعينها سوى مكة/بكة ، والمدينة ، وبابل.

٢. ولمناقشة عميقة لهذا الموضوع انظر:

أحمد إلياس ، نحو مفهوم إسلامي لعلم التاريخ ، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا ، كوالالمبور ، ٢٠٠١، ص ٤١.

وقد أورد الكاتب مشروعات مهمة حول إعادة النظر في كتابة التاريخ الإسلامي من مفكرين وعلماء محدثين بما فيهم الكاتب نفسه.

٣. في هذا السياق أورد المسعودي في كتابه أخبار الزمان (ص٤) أن أتت اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن ابتداء الخلق فقال:"خلق الله الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين، وخلق الجبال وما فيها من منافع يوم الثلاثاء ، وخلق الماء والشجر والمدائن والعمران يوم الأربعاء ، فذلك قوله تعالى: (... وما مسنا من لغوب...)

(... أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ...)

وخلق السماء والكواكب يوم الخميس، والنجوم والملائكة والجنة والنار وآدم عليه السلام يوم الجمعة.

قالوا – أي قالت اليهود للرسول – ثم ماذا بعد يا محمد؟ قال ثم استوى على العرش. قالوا: قد أصبت لو أتممت وقلت ثم استراح. فغضب رسول الله غضباً شديداً فأنزل الله تعالى

٤. أورد هذه العبارة المسعودي في كتابه أخبار الزمان صفحة ٦٤.

٥. بينما يذكر المسعودي أن فرعون موسى هو الوليد بن مصعب كما تقدم ذكره.

٦. ذهب بعض المعاصرين إلى أن موقف الكتب المقدسة بتأثير التوارة جعل لمصر صورة سالبة تتمثل في طغيان الفرعون ، وخروج بن إسرائيل، والسنين العجاف ، وسوء سلوك امرأة العزيز ، وادعاء الفرعون للألوهية، وهذا ربما تأذت منه الروح المصرية كما يذهب إلى ذلك د. لويس عوض (فوزي ١٩٩٣:١٦٥).

قائمة المراجع باللغة العربية:

١. ول ديورانت(٢٠٠٢) ، قصة الحضارة ، (الجزء الاول) ، تلخيص سهيل محمد ديب ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

٢. أحمد الياس حسين (٢٠٠١) ، نحو فهم إسلامي لعلم التاريخ، الجامعة الإسلامية العالمية ، ماليزيا ، كولالمبور.

٣. عبد الحليم عويس (١٩٩٦م) ، التأصيل الإسلامي لنظريات بن خلدون، سلسلة كتاب الامة ، وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية ، قطر.

٤. عبد العظيم محمود الديب (١٤١١هـ) ، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الاسلامي ، كتاب رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية ، قطر.

٥. جورج طرابيش (١٩٩٩)، نقد العقل العربي – نظرية العقل، دار الساقي، بيروت ، لبنان.

٦. محمد عابد الجابري (١٩٩٩)، التراث والحداثة، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، لبنان.

٧. أحمد الياس حسين (٢٠٠٨)، السودان الوعي بالتراث وتأصيل الهوية، كاس للطباعة ، كوالالمبور ، ماليزيا.

٨. المسعودي توم ريجير ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، عربي، على الشبكة العنكبوتية www.al.mostafa.com ، طبعة باريس، ١٩١٦م.

٩. أخبار الزمان على الشبكة العنكبوتية.

١٠. فوزي الاقناوي (١٩٩٣) ، مصر الفرعونية بين الماضي والحاضر، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، مصر.

١١. رشدي البدراوي (٢٠٠٩م)، قصص الأنبياء والتاريخ، مكتبة ومطبعة المجلد العربي ، القاهرة ، مصر.

١٢. سلوى ناظم (٢٠٠٨م)، الترجمة السبعينية للعهد القديم ، دار نون: شبرا، القاهرة، مصر.

١٣. بن خلدون، المقدمة، نسخة على الشبكة العنكبوتية.

١٤. ألبان.ج.ويدقرى،(١٩٩٦)، التاريخ وكيف يفسرونه، الجزء الأول، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

قائمة المراجع باللغة الانجليزية:

1. Firth, C.B (1952), People of Good Hope, Ginn. And Company Ltd., London. U.K.
2. Perny, Merin et al (1985), Western Civilization, Houghton Boston. U.S.A.
3. Hegel, Wilheln Fredrich (2001), The Philosophy of History, Botoche Books, Ontario, Canada.
4. Shariati, Ali (1985) , Reflections of Humanity, free Islamic Literature, Texas, U.S.A.
5. Anta, Chiekh Diop,(1974), The African Origin of Civilization, translated by Mercer Cook, Lawrence Hill Books. Chicago, U.S.A.